جاءت سارة إلى العيادة النفسية تشكو من ابنها "محمد" الذي لا ينتبه بصورة كافية إلى الدروس، ولا يحب أن يذهب إلى المدرسة، برغم من أنه يبدي درجة عالية من الذكاء، ولا توجد لديه مشكلة ظاهرة في التحصيل.

"محمد" يعاني صداعًا مفرطًا أثناء شرح المدرس للدرس، لأنه وببساطة يفهم من أول مرة، بينما المدرس يضطر إلى تكرار ما قاله أكثر من مرة ليفهم أقرانه بالفصل، مما يصيب "محمد" بالضيق لأنه يريد أن ينتقل بصورة سريعة للخطوة التالية، ولأن المدرس لا يستطيع تخطى باقي التلاميذ بالفصل، فإنه لا يعير شكوى "محمد" الاهتمام مما يصيب الطالب بالضيق، ومن ثم يشتت انتباهه فلا ينتبه لما يقال لاحقًا بعد التكرار السابق.

ومع توالي هذا الموقف أصبح "محمد" يكره الذهاب للمدرسة لأنها ارتبطت لديه بالتكرار الممل الذي يسبب له صداعًا يكرهه. وبرغم ذلك فإن قدرة "محمد" على التحصيل لا تزال في أوجها، ولكن مشكلته الأساسية الآن تتمثل في شعوره بأن المَدرسة لا تحقق له درجة المعرفة السريعة التي يريدها، لذا لا يحب أن يرتادها مرة أخرى.

أما "أمل" فكانت شكوى والدتها مختلفة تمامًا، إذ تحدثتْ عن الخيال الخصب الذي تتمتع به الفتاة من صغر سنها، وبأنها تمتلك طاقة هائلة في السرد حتى أنها بدأت تكتب قصصًا أقل ما يقال عنها إنها إبداع حقيقي، فقصصها تميل لتواتر الخيال بدون انقطاع، وتميل للاستنباط أيضًا، وهذا ما يُعد غريبًا على طفلة في مثل عمرها، لأن "أمل" تبلغ من العمر عشر سنوات.

أكثر ما أثار حفيظة الأم واستغرابها هي مفردات أمل الكتابية تتعجب الأم من أين تحصل على تلك الحصيلة اللغوية الخصبة، وكيف تستطيع أن تُكون تلك التراكيب الخيالية، وعن مدى معرفتها بأصول اللغة، أبدت الأم اندهاشًا بفتاتها وفكرتْ كثيرًا في تنمية مواهب طفلتها بطبع مجموعاتها القصصية، ولكن أكثر ما خشيته الوالدة أثر ذلك على طفولة "أمل"، وعلى علاقتها بأقرانها، وكيف سيؤثر الإعلام عليها بالسلب، فكرتْ الأم كثيرًا في الآثار السلبية أكثر من تفكيرها في الآثار الإيجابية.

وبالطبع هي مخطئة ومحقة في آن.

محقة في شعورها الفطري بأنها لا تريد سرق طفولة ابنتها بالأضواء، وبتخطي مرحلة طفولتها لمرحلة أكبر من سنها وهى

مرحلة الشهرة وما يصاحبها من ضغوط على نفسية الطفل وعلى مجالات تفاعلاته، وبنفس الوقت هي مخطئة لأنها قد تطمر تلك الموهبة وتسرقها، وقد تعاتبها الطفلة فيما بعد، فما يُعد إبداعًا في تلك السن قد لا يُعد إبداعًا في سن لاحق، فمن يدرى هل تستمر تلك الموهبة الكتابية والسردية الفائقة مع "أمل" أم أنها قد تذبل وتنطفئ شمعتها.

الأم تطلب النصيحة وهي في حالة حيرة شديدة، فالفتاة لا تُبدى فقط الموهبة في مجال الكتابة، ولكن كل تصرفاتها تدل على امتلاكها لدرجة عالية من الفهم تتميز بها عن قريناتها من نفس المرحلة العمرية، كما أشارت الأم لبعض الملاحظات بأن الطفلة استطاعت تكوين جملة كاملة قبل أن تتخطى عامها الأول وبدا عليها نمو عقلي فائق في مرحلة عمرية مبكرة، فجاءت تسألنا ما هو الحل لحيرتها؟

أما "أحمد" فتحدث والده بعصبية بالغة وهو يخبرني أن هذا الطفل مستفز جدًا ويجعله من آن لآخر يرغب في كتم فمه بيديه من كثرة أسئلته، قال في عصبية وتوتر شديدين: "هل تتصورين هذا الغبي دائمًا ما يسألني عن أشياء يجب أن لا

يفهم فيها أو أن يمتلك معرفتها بمثل هذا العمر، لا أدرى من أين يستقي هذا المجنون أسئلته؟!أنا قد سئمته ولا أستطيع أن أرد عليه، فأسئلته جدًا محرجة،وتتطلب مني أنا نفسي معرفة عالية لا أملكها، هذا المستفز يسأل في الكون وأسراره، بل إنه أيضًا يسأل في بعض الأمور التي تتعلق بالفيزياء، والأغرب من ذلك أنه يقوم بعمليات حسابية دقيقة وكبيرة ويسألني عن بعض الأمور فيها وأنا لا أمتلك الإجابة، أكاد أقسم لكِ أن هذا الطفل مسّه جنّي، أو أنه مجنونٌ كلية، من أين له بتلك الأسئلة الشيطانية، هل هي والدته من وجهة نظرك من تلقنه تلك الأسئلة لتثير جنوني؟ نعم،نعم،أعتقد أنها والدته، أرجوكِ. أريد حلاً لأخرس فم هذا الطفل المزعج".

و"فاروق" أمره مختلف كليةً؛ فوالدته جاءت للعيادة تشكو من فرط حركته وعدم استجابته في الدراسة، وبملاحظة "فاروق" تم اكتشاف موهبة رائعة في الأداء التمثيلي، فالطفل قادر على محاكاة كل ما سمع ورأى عبر شاشة التلفاز، ويستجيب بصورة رائعة لأي موسيقى تدور حوله، ولكن بالفعل لديه صعوبة شديدة في الإنجاز، وكذلك يبدو أن لديه صعوبات في التعلم.

"هشام" كان وضعه مثيرًا للريبة قليلاً؛ فهو منطوي جدًا على نفسه، ويبدو عليه الاعتزاز بالذات والنظرة الفوقية للآخر برغم صغر سنه، كما أن والدته ووالده يشكوان من محاولته فرض السيطرة في المنزل والأخذ بزمام الحوار والأمور بدلاً منهما، حتى أنهما تخيلاه وكأنه هو ربّ الأسرة الأول والأخير، وكذلك فإخوته يعانون من سيطرته، وبرغم ذلك فهو في الخارج شخصية منطوية تمامًا، يعزف عن زملائه، وبسؤاله قال إنهم لا يرتقون لمستواه، وإنهم أطفال أغبياء بينما هو ذكي جدًا، وإن الأمر ليس منه فقط فهم أيضًا يعزفون عنه لإحساسهم أنه مختلف عنهم وأنه يفوقهم ذكاء وقدرة على التحصيل، ولذلك يشعرون بالدونية فيفرضون عليه معاملتهم من هذا المنطلق.

"خالد" يحكى وهو مبتسم ومختال عن قدرته في التوفيق ما بين ذكاءه وعلاقاته الاجتماعية بأقرانه في المدرسة، فهو يقول: "إن مَن يمتلك شيئًا يشارك به الآخرين، يجعلهم يتغاضون عن الشيء الذي ينقصهم ويفوقهم فيه"، وبالاستفسار عن كيفية ذلك يجيب ببساطة بأنه يحترف لعب كرة القدم،

ولذلك يستطيع مشاركة باقي الزملاء سواء كانوا ممن يفوقونه تحصيل أو ممن في مستوى أدنى من مستواه، فالأمر هنا عبارة عن اندماج إنساني خالي تمامًا من الضغائن والضغوط التي قد تسببها قدرته العالية على التحصيل ومواهبه المختلفة، وأضاف مبتسمًا إن زملائه المتفوقين ممن لا يمتلكون مهارات أخرى في اللعب مثلاً يكونون في حالة عزلة وانطواء ويشعرون أنهم غريبو الأطوار، وكذلك يعتبرهم الجمع الغفير من التلاميذ.

بينما تحدثت والدة "أسامة" بكل انفعال عن سوء تصرف طفلها البالغ من العمر خمس سنوات، فهو يتلذذ بإفساد أجهزة المنزل، حيث يعبث بالهاتف ويفككه وكذلك يعبث بالكمبيوتر النقال وجهاز المحمول، وكاد أن يهشمهما ذات مرة ليفهم طبيعة تردد الصوت وانتقال الصورة، وكيف أنه يُدقق النظر مطولاً للتلفاز ويرغب في الدخول إليه ليكتشف هذا العالم المذهل. الغريب أنه يُخبرها أنه يعلم جيدًا أنه لا يوجد بداخله بشر، ولكن يُريد أن يفهم كيف يستقبل الصورة.

كان فهمه لعمل التكنولوجيا يعتبر غريبًا على الوالدة، فهي لم تتخيل أن يدرك ابنها طبيعة عمل التلفاز؛ فمن في مثل عمره

يعتقدون ربما بوجود أشخاص بداخل هذا الصندوق السحري، الطفل هنا مصدر تهديد للوالدة، تخشى أن تتركه في المنزل وحيدًا خشية إفساده لكل الأدوات الكهربائية بالمنزل، أيضًا أخته تمارس نفس السلوك ولكن بصورة مختلفة، فهي ترغب في تفحص كل شيء أمامها، على سبيل المثال، تدخل المطبخ وتعبث في درج السكاكين، والأم بالطبع تخشى عليها أن تجرح نفسها فتنهرها بشده، محذرة إياها من الدخول للمطبخ أو العبث بأي شيء في المنزل بدون إذنها.

هل تصرف الأم هنا يُعد تصرفًا إيجابيا؟ وهل فرض القيود على الأطفال صحيحًا؟ أليس هناك من وسيلة أخرى تعالج بها الأم سلوكيات أطفالها وتمنحهم الشعور بالرضا والإشباع والإنجاز، وأيضا تمنحهم خبرة التعلم الجديدة بدون أن تحجم قدرتهم على الاستكشاف؟

هذا سؤال سنجيبكم عليه لاحقًا، ولكن بعد الحديث عن حالة "أسماء" ووالدتها.

"أسماء" مصدر إرهاق شديد للأم، فهي تمتلك مقدرة شديدة على الحفظ وخاصة حفظ القرآن الكريم، إلى هنا الوضع طبيعي

جدًا وجميل وكل منا يتمنى أن يوهب الله ابنه أو ابنته تلك الموهبة والقدرة البديعة، لكن المرهق في الأمر أنها لا تنام يوميًا إلا بعد تسميع الكثير من آيات الذكر الحكيم مع مطالبتها أن تردد والدتها معها الآيات بصورة مستمرة، وبطريقة نطق سريعة، مما يستهلك الأم، ولكن لا مفر من ذلك فالفتاة تنتابها نوبة عصبية إذا لم تشاركها الأم في الأمر، وما يثير غضب الأم أنها يجب أن تحفظ الآيات مع الطفلة لا أن تقرأها مباشرة من المصحف، ونظرًا لكبر سنها فذاكرتها لا تسعفها، وبنفس الوقت هي ممتنة جدًا لموهبة ابنتها ولا تريد أن تمنعها عنها، فهي هبة مميزة من الله عز وجل.

فبرأيكم ماذا تفعل الأم كي لا تؤثر على موهبة الطفلة، وكي تحافظ على نفسها من الاستهلاك اليومي الذي تطالبها به ابنتها؟

بعض تلك الحالات متداولة أليس كذلك؟

كل منكم مرّ طفله بسلوكيات شبيهه، أكاد أشعر بكم وأنتم منتبهون جدًا وتكادون تلتهمون السطور بحثًا عن تفسير لما يشابه سلوك أطفالكم هنا.

أكثر الحالات التي استفزتني فعلاً كانت حالة لطالب بالصف الثاني الابتدائي جاءت والدته تشكو من فرط نشاطه وعدوانيته وتدني مستوى ذكائه، الطفل يبدو عليه التوتر المبالغ فيه مع آثار فعل تكراري قهري، مما يُشير لتدني صورة الذات لديه وشعوره بالخوف والقلق، فقد كان يقرض أظافره بصورة مبالغ فيها، وكذلك يعض جلده إلى أن ينزف مع نتف الشعر وأكله. وبفحص الطفل جسديًا لتفحص آثار العدوان التي ربما تكون مُمارسة عليه وجدت أثر جرح في رأسه وذراعيه وقدميه مع آثار حروق بسيطة في جميع أجزاء جسده، مما أثار جنوني وتساؤلاتي للوالدة عن أسباب تلك الجروح القديمة، فحكتْ لي كيف أن والده يمارس العنف عليه بصورة مفرطة، حتى أنه يضربه بسيخ من الحديد، وكان هذا سبب شج رأسه سابقًا.

الأم تُقيم وولديها مع الأب الذي يعمل مهندسًا بالمملكة العربية السعودية، ونزلتْ إلى القاهرة في زيارة لأهلها، ولعلمها بأن ابنها لم يكن بتلك الصورة سابقًا لجأت للعلاج والإرشاد النفسي لتستفسر عن سبب تدني الطفل بالتعليم وكذلك سبب السلوك القهري الذي يمارسه، وكأنها لا تعلم كيف تؤثر سلوكياتنا على أطفالنا!

عند تطبيق بعض الاختبارات على الطفل كانت نتيجة قدرته العقلية مذهلة، ولكن بالطبع قدرته على التحصيل متدنية جدًا من ضغوط الأهل عليه ومن العدوان الموجه ضده، كان هذا الطفل مثار تساؤل: هل تنقلب الموهبة إلى صورة من صور التخلف العقلي البسيط؟

بالطبع سأجيبكم لاحقًا..

ولكن دعونا الآن ننتقل إلى فهم طبيعة الموهبة ومظاهرها، وكيف نعلم أن لدينا طفل موهوب..

الطفل المصري يمتلك أعلى معدلات ذكاء حتى سن 6 سنوات، ثم ما يلبث أن يتدنى هذا المستوى العالي من الذكاء، فهل للأسرة والتعليم والبيئة أثر مباشر في ذلك، أم أنها طبيعة النمو العقلي للطفل.

في كل بيت – ربما - طفل منحه الله موهبة تميزه عن إخوته وأقرانه، ولكن كيف يتأكد الوالدان من أنها بالفعل موهبة تستحق الاهتمام ويجب الاعتناء بها لتنمو؟

هنا سنبدأ بوضع أقدامنا على أول الدرج لنصعد سويًا نحو سيكولوجية الطفل الموهوب/المبدع، فدعونا نعرف أولاً ماهية الموهبة، ومعنى الطفل الموهوب.